

# المقصد

غرة ذي القعدة سنة ١٣٢٤

## صدور المشاركة والمغاربة

الجاحظ

لم يأت على الشرق العربي أيام كانت «رياض الازمنة» وعهد السعد حقيقة  
كاوائل الدولة العباسية ولا سيما زمن المأمون والرشيد علم زاهر وحرية مطلقة  
وسعة عيش وسيادة تامة ونصر موزر وادب شامل والقول الفصل لارباب العقل  
في كل حال وشأن . ولذلك لا يستغرب ان ينشأ أيام تلك الدولة مثل الجاحظ  
رجل العلم الراسخ والنظر السديد والادب الناضج والبلاغة التي لم يكتب لمنقدم  
ولا لتأخر في هذه الامة العربية ان داناها على نحو ما اجمع كبار ارباب  
هذه الصناعة

ولد الجاحظ وطبرالين بقرّ في الاصقاع الاسلامية وناهيك بالعراق في  
قرنه الثاني والثالث . فكانت هذه الاسباب على ما خص به من جودة القطرة  
أكبر ممين له للقبض على قياد العلم النافع وتحكيم العقل السليم في المنقول ولقد  
نخرج بالنظام صاحب المذهب المعروف في علم الكلام واكنه لم يجمد على علمه  
وحده وان كان رأساً في علم الكلام وله مقالة معروفة به في اصول الدين وفرقة

تعدى اليه من فرق المعتزلة اعقل ارباب المذاهب في الاسلام دعيت الجاحظية  
 الجاحظ وعلا من اوسع اوعية العلم في الامة بمجوال لبابه خالصاً من  
 القشور كلها كان وفقاً على الخبير المحض لكل متناول فكانه وكان مصنفاته الممتعة التي  
 تجلي فيها بمد نظره وغوره واخلاصه واخلاقه دائرة المعارف او موسوعات العلوم بلغة  
 غريبة منتشرة لعمدنا حوت كثيراً من علوم البشر او النافع الراجح منها وهي مسجلة على  
 المطبعة في خزنة كتب اذا قلبت اي صفحة من صفحاتها تعود من تحديقك فيها وقد  
 حفل وطابك بما طاب من ثمرات معارف تناس

فهو ولا مرآة احد افراد في هذه الامة ما اظنهم يتجاوزون عدد الانامل .  
 هو من اذا ذكروا في مصاف رجال الامم رفعتا بما كتبوا رؤوسنا وابتهجت  
 بذكراهم نفوسنا . ناهيك برجل قل في وصف كتبه الاستاذ ابو الفضل ابن العميد  
 الوزير العالم المشهور وقد جرى ذكر الجاحظ في مجلسه فغض منه بعض الحاضرين  
 وازرى به فسكت الوزير عنه فيما خرج الرجل قال ابو القاسم السيرافي وكان  
 حاضراً : سكت ايها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على امثاله  
 فقال : « لم اجد في مقابله ابلغ من تركه على جهله ولو واقفته وبيت له لنظر في  
 كتبه وصار بذلك انساناً يا ابا القاسم فكتب الجاحظ تعلم العقل اولاً . والادب  
 ثانياً ولم استصلحه لذلك . »

نعم ان كتب الجاحظ على ما قال ابن العميد تعلم العقل والادب وان  
 حسده معاصروه فما هو اول ذي نعمة محسود . بيد انه كان عارفاً بشغب المشاغبين  
 وحسد الكارهين واليك ما قاله فيهم في كتاب العاسن والاضداد : « اني ربما الفت  
 الكتاب المحكم المنقن في الدين والنفقة والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام  
 وسائر فنون الحكمة وانسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم

بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه القدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يحتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغنلة فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي تصدوه وارادوه وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب تحريراً نقابياً وتقريراً بليغاً وحاذقاً فطناً وعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والقوام اعراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى ملك آخر ومثوا اليه به وعم قد ذموه وتلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي

« وربما ألف الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فاترجمه باسم غيبي وأحبله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والحليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيما تبني اوائك القوم باعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم ويصبرونه اماماً يفتدونه به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه حتى لغيرهم من ضلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رئاسة يأتهم بهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمي ولم ينسب اليّ تأليفي »

هكذا كانت الحال بين الجاحظ ومعاصريه والمعاصرة حرمان في كل زمان. ولكن كان له من القبول عند الخلفاء والامراء والاعنياء في دهره ما يعل وقوعه. لانه اثيره في عصر من الاعصار. فان استبشع المتوكل منظره لما ذكر له لتأديب بعض ولده وصرفه بعد اكرامه. وكان الجاحظ مشوه الخلق قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ انتوة وكان يقال له اخذ في ذلك - فقد اختاره ندمون، لما نفسه وكفى بنزلة المأمون بين خلفاء الاسلام فهو اعقل خليفة في الاسلام بلا مدافع واعلم رجال

بني العباس . وعمر مترجنا عمراً طويلاً فنبف على ما قبل عنه على تسعين سنة .  
 وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة بلده التي نشأ فيها . قال ابن خلكان  
 وقد أصيب بالفالج في اواخر عمره فكان يظلي نصفه الايمن بالصندل والكافور  
 لشدة حرارته والنصف الايسر لو قرص بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة  
 برده وكان يقول في مرضه اصطلمت عليّ الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان  
 اكلت حاراً اخذ برأسي وكان يقول انا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرص  
 بالمقاريض ما علمت به ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لالت وبي  
 حصاة لا ينسرح لي البول معها واشد ما عليّ ست وتسعون سنة وكان ينشد

اترجو ان تكون وانت شيخ كما قد كنت ايام الشباب  
 لقد كذبتك نفسك لبس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وحكى بعض البرامكة قال كنت ثقلت السند فاقمت بها ما شاء الله تعالى  
 ثم اتصل بي ابي صرفت عنها وكنت كسبت ثلاثين الف دينار خشيت ان يفجاني  
 الصارف فيسمع بمكان المال فيضع فيه فصفته عشرة آلاف اهليجة في كل اهليجة  
 ثلاثة مثاقيل ولم يمكث الصارف ان اتى فركبت البحر وانحدرت الى البصرة فخرت  
 ان الجاحظ بها وانه عليل بالفالج فاحببت ان اراه قبل وفاته فصرت اليه فاقضيت  
 الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت اليّ خادماً صفراء فقالت : من انت ؟ قلت :  
 رجل غريب واحب ان أسر بالنظر الى الشيخ فيلقته الخادم ما قلت فسمعته يقول :  
 قولي له : وما تصنع بشق مائل وله اب سائل ولون حائل فقلت للجارية : لا بد من  
 الوصول اليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع بعلمي فقال :  
 أحب ان اراه قبل موته فاقول قد رأيت الجاحظ ثم اذن لي فدخلت وسلمت  
 عليه فرداً جبلاً وقال : من تكون اعزك الله . فانتسبت له فقال : رحم الله

تعالى اسلافك واثباتك السمعة الاجواد فلقد كانت ايامهم رياض الازمنة ولقد  
 انجبر بهم خلق كثير فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : انا سالك ان تشدني  
 شيئاً من شعرك فانشدني .

انن قدمت قبلي رجال فظالما مشيت على رسلي فكنت المقدما  
 ولكن هذا الدهر تأني صروفه فتبهم منقوضا وتنقض بهرما  
 ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال : يا فتى ارايت مفلوجا ينفعه الاهليلج  
 قلت : لا . قال : فان الاهليلج الذي معك ينفعني فابث لي منه فقلت : نعم  
 وخرجت مبعثياً من وقوعه على خبري مع كتابي له وبديت له مائة اهلجية .  
 فلما ولو وقعت حكاية الاهليلج لرجل من المتأخرين لمدها للقاتل كرامة  
 وراح يدعي ان صاحبه يعلم الغيب ويكشف مخبات القلوب ويتصرف في الكون  
 واهله الى اخر ما يلفظ به المهوسون في هذه القرون وقد بلغ من ضعف العلم والعقول  
 ان لو انكر منكر ذلك لرموه بكل كبيرة ولكن ذلك الامير البرمكي عد بظفرته  
 السلية ما صدر عن الجاحظ قوة فراسة ونسبه الى اتفاق صدق واقفا . ولو اتج  
 لنا الاطلاع على ترجمة مفصلة للترجم به لعرفنا الجاحظ ونشأته وما وقع له في عصره  
 وما اثره من المصنفات التي اعد بالعشرات اكثر مما عرفنا منه وما علينا للوقوف  
 على ذلك الا ان نعد الى النظر الى تاليفه ففيا اعظم ترجمة حافلة له وكلام الرجل  
 اصدق ما ينبي عنه

